الفصل الثالث

العلاقات بين السلطان سنجر والخلفاء العباسيين

وصحوة الخلافة العباسية

[٥٠٤-٥٥٢هـ/١١١٠-١١١٥م]

(أ) علاقة السلطان سنجر بالخليفة المستظهر بالله

(٥٠٤-٥١٢هـ/١١١٠-١١١٨م)

(ب) علاقة السلطان سنجر بالخليفة المسترشد بالله

(٥١٢-٥٢٩هـ/١١١٨-١١٣٥م)

(ج) علاقة السلطان سنجر بالخليفة الراشد بالله

(٥٢٩-٥٣٢هـ/١١٣٥-١١٣٨م)

(د) علاقة السلطان سنجر بالخليفة المقتفى لأمر الله

(٥٣٢-٥٥٢هـ/١١٣٨-١١٥٥م)

obeikandl.com

(أ) علاقة السلطان سنجر بالخليفة المستظهر بالله (٥٠٤-٥١٢هـ/١١١٠-١١١٨م)

obeikandl.com

فى شعبان من سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م تزوج أمير المؤمنين الخليفة العباسى المستظهر بالله (٤٨٧-٥١٢هـ) السيدة خاتون بنت جلال الدنيا والدين السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان وأخت كل من محمد وسنجر ، وكان صداقها مائة ألف دينار(١).

ولقد قصد كل من سنجر وأخيه محمد الخليفة العباسى المستظهر بالله فى بغداد ، فعهد الخليفة بالسلطنة لمحمد ، وفوض لسنجر ولاية العهد(٢).

وقبيل وفاة السلطان محمد عهد لابنه محمود بتولى أمور السلطنة ، وماكان من الخليفة العباسى المستظهر بالله الا أن اعترف بمحمود سلطانا - وهذا يناقض عهده لسنجر - فيما رفض سنجر أن يكون تابعا لابن أخيه ومن ثم أعلن نفسه سلطانا على السلاجقة ، مما أحدث خلافا كبيرا بين سنجر ومحمود أدى الى حد القتال بينهما وكان النصر فى معظم الأحيان حليفا لسنجر(٣)، وهذا مادفع الخليفة العباسى المسترشد بالله أن يعترف به سلطانا للسلاجقة بعد وفاة والده الخليفة المستظهر بالله .

ومن هنا يتبين أن موقف الخلفاء العباسيين عامة والخليفة المستظهر بالله خاصة من الخلافات بين أفراد الأسرة السلجوقية ، أن يعترف وينحاز لمن ترجح كفته على الآخر ، كما يتضح لنا أن دوره كان سلبيا من تلك النزاعات والخلافات بين السلاجقة بل ونرى أنه باعترافه لمحمود بن محمد سلطانا للسلاجقة ونقض عهده لسنجر كان من الأسباب الرئيسية فى نشوب القتال بين سنجر وابن أخيه .

---

(١) الحسينى : زبدة التواريخ ، ص١٧١ - على ابراهيم حسن : التاريخ الاسلامى العام ، مكتبة الفلاح ، الكويت ، ومكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ص٤٦٥ . .

(٢) ابن الجوزى : المنتظم ، ج١٠ ، ص١٧٨ - العينى : عقد الجمان ، ج١٢ ، ورقة ٩٨

(٣) عن الحرب بين سنجر ومحمود انظر : الرسالة ، الفصل الثانى .

(ب) علاقة السلطان سنجر بالخليفة المسترشد بالله

(٥١٢-٥٢٩هـ/١١١٨-١١٣٥م)

obeikandl.com

منذ أن تولى المسترشد بالله بن المستظهر بالله الخلافة العباسية (٥١٢-٥٢٩هـ/١١١٨-١١٣٥م) بدأ العمل والكفاح من أجل استرداد نفوذ وهيبة الخلافة العباسية ، واسقاط نفوذ السلاجقة ، وقد أظهر عدم رضاه عن السلاجقة بسوء أفعالهم بهذا النص حيث قال : "فوضنا أمورنا الى آل سلجوق فبغوا علينا ، فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون"(١)، فقام بأعمال اصلاحية فى المجتمع جعلت الفقهاء ورجال الدين يؤيدونه وينا صرونه على تلك الأعمال الاصلاحية المتمثلة فى اغلاق بيوت الفسق والفساد ، والغاء حوانيت الخمر وتتبع المفسدين مما حببه الى الفقهاء ورجال الدين ، وكان هدفه من وراء هذه الأعمال الاصلاحية تقوية المجتمع وصيانته اضافة الى ضرب قوة السلاجقة .

ففى سنة ٥١٣هـ/١١١٩م عزل الخليفة المسترشد بالله القاضى أبا على الحسن بن ابراهيم الفارقى(٢)عن قضاء واسط ، وولى أبا المكارم على بن أحمد البخارى(٣).

وفى شوال من هذه السنة بعث السلطان سنجر هدايا الى الخليفة حملها القاضى الهروى ، فاستقبله وزير الخليفة أحسن استقبال وأحضره الى ديوان الخلافة فسلمها للخليفة(٤).

---

(١) نظامى عروضى سمرقندى : جهار مقالة ، تحقيق محمد عبد الوهاب القزوينى ، الطبعة الأولى ، مطبعة لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م ، ص٣١ .

(٢) القاضى أبو على حسن بن ابراهيم الفارقى : ولد بمدينة بميافارقين سنة ٤٣٣هـ/ ١٠٤٠م وتفقه على محمد بن بيان الكاذوربى وابن الصباغ وحفظ عليه الشامل ، وصفاته أنه كان ورعا زاهدا صاحب حق ، مجودا بحفظ الكتابين ، تولى قضاء مدينة واسط مدةمن الزمن وتوفى بها فى محرم سنة ٥٢٨هـ/١١٣٤م وعمره كان ٩٥ عاما تفقه عليه القاضى ابن عصرون .
انظر سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج٢ ، ص٦٧٨ .

(٣) أبو المكارم على بن أحمد البخارى : تولى قضاء واسط ، توفى سنة ٥٣٠هـ/١١٣٦م
انظر سبط ابن الجوزى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص٦٧٨ .

(٤) سبط ابن الجوزى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص٦٧٨،٦٧٩ .

وكان السلطان سنجر يهدف من وراء ذلك الى تحسين علاقته بالخليفة العباسى المسترشد بالله ، وفى سنة ٥١٤هـ/١١٢٠م خطب ببغداد للسلطان سنجر ولابن أخيه محمود بن محمد ، ولقب سنجر بعضد الدولة ، ومحمود بجلال الدولة(١).

وفى سنة ٥١٥هـ/١١٢١م كاتب الخليفة العباسى المسترشد بالله ايلغازى (٢) يأمره بابعاد دبيس بن صدقة وفسخ الكتاب الذى عقده على ابنته(٣).

وفى نفس السنة بعث السلطان سنجر القاضى أبا سعد الهروى الى بغداد ليكون هيبة أمام سيف الدولة دبيس بن صدقة بناء على طلب الخليفة المسترشد بالله ، وعندما انتهت مهمته عاد برسالة للسلطان سنجر من الخليفة ومعه خلعة الخليفة وهدايا(٤).

وفى سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م أراد الخليفة العباسى أن يبرز هيبة وقوة الخلافة العباسية فضرب على يد دبيس بن صدقة صاحب الحلة لأنه كان مصدرا خطرا على الخلافة العباسية ومصدرا للفتنة والقلق ، فأرسل دبيس بن صدقة رسالة الى الخليفة المسترشد بالله يهدده بارسال جنوده لقتاله وتخريب بغداد ، فانتهز الخليفة ذلك الموقف ووجد أن الفرصة سانحة أمامه لاظهار قوة الخلافة العباسية فجهز جيشا وعبر نهر دجلة لقتال دبيس بن صدقة ، فكان النصر حليفا للخليفة العباسى المسترشد بالله ولجأ دبيس الى الفرار واستقر به

---

(١) سبط ابن الجوزى : المصدر السابق ، ج٢ ، ص٧٠٢ .

(٢) ايلغازى : هو نجم الدين ايلغازى بن اوتق ، قام بغزوات ضد الفرنج سنة ٥١٣هـ/١١١٥م وتوفى فى شهر رمضان بميافارقين سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م ، وتولى ابنه حسام الدين غرناش بعده .
انظر ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٨ ، ص٢٨٨، ٣٠٩ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص٢٢١ .

(٤) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج٢ ، ص٧٢٢ .

المقام عند طغرل بن السلطان محمد(١).

وفى نفس السنة أمر المسترشد بالله ببناء سور بغداد ، ويعد هذا من الأعمال الجليلة للخليفة العباسى المسترشد بالله ، حيث يحمى هذا السور محاولات الاعتداء على البلاد(٢).

وفى جمادى الأولى من سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م تكاملت الدور التى شرع الخليفة العباسى المسترشد بالله فى بنائها المطلة على حافة دجلة من أجل زواجه من ابنة السلطان سنجر ، وكان الخليفة قد أرسل القاضى أبا سعد الهروى ليخطب له ابنة السلطان سنجر ، وهو أيضا المتولى كتابة عقد الزواج ، وفى رجب من نفس السنة تقدم وابن الأنبارى الى السلطان سنجر لاحضار ابنته زوجة المسترشد بالله(٣).

وفى سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م كانت البداية الفعلية للنزاع بين الخلافة العباسية والدولة السلجوقية ، ويرجع السبب فى هذا النزاع الى الدور الذى لعبه دبيس بن صدقة فى اغراء طغرل فى طلب السلطنة ، ليحقق هدفه وهو الانتقام من الخليفة المسترشد بالله ، ولقد ذكرنا ذلك فيما سبق وقد كان لقتال الخليفة المسترشد بالله لطغرل أثر طيب فى نفس السلطان محمود ، ولهذا أرسل اليه رسالة يشكره ويظهر له الطاعة . ويتبين من نص هذه العبارة "قد عملت مافعلت لأجلى ، وأنا أخادمك وصائر اليك" ، ويتضح من ذلك مدى الاتفاق بين الخليفة والسلطان محمود .

وفى سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م اتفق كل من الخليفة العباسى المسترشد بالله والسلطان محمود على السلطان سنجر ، وحينما علم السلطان سنجر بهذا الاتفاق كتب الى السلطان محمود يشككه فى نوايا الخليفة المسترشد بالله قائلا له : (ان الخليفة قد عزم على أن يمكر بى وبك فاذا اتفقتما على فرغ منى

---

(١) عن هذا القتال انظر الرسالة ، الفصل الثانى .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٨ ، ص٣١٤ .

(٣) ابن الجوزى : المنتظم ، ج٩ ، ص٢٥٠ . (كان يقصد من وراء هذا الزواج تحسن العلاقات السياسية والاشتراك فى الحكم أكثر مما هو زواج فى حد ذاته) .

وعـاد اليك ... ويجب بعد هذا أن تمضـى الى بغداد ومعـك العسـاكر فتقبض على دبيـس بن صدقة ،وتقول للخليفـة أنا سيفك وأنت تعـود على دارك على ماجرت به عادة آبائك .. والا لم يبق لك ولالى معه حكم)(١).

ومـن هنا يتبين أن فحوى الـرسالة بمثابة النصيحـة والتوجيه للسلطان محمـود بعدم الانصياع للخليفـة المسترشد بالله لأنه يهـدف الى الايقـاع بينهما ليتخلـص منهما الواحد تلو الآخر ، ومن ثم يقضى على النفـوذ السلجوقى .

فما كان من السلطان محمود الا أن استجاب لطلب عمه السلطان سنجر ورجع عمـا عزم عليه ، اضافة الى ماأوقعه برنقش الـزكوى من فتنة فى نفس السلطـان محمـود من استيلاء الخليفـة على بغداد ، فعـزم السلطـان محمود على المسير الى بغـداد ، وأرسـل اليـه الخليفة يطلب منه عـدم الـدخول الى بغداد لقلـة الأقوات وسوء الأحوال . ولم يصغ السلطان محمود الى مـاطلبه الخليفة منـه حيث دخل بغداد فى ذى الحجـة من نفس السنة ، وكـان ذلك من أكبر العوامل التى بدلت الموقف. ، وقد تحدثت عن ذلك فيما سبق .

وفى المحـرم من سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م كان القتال مازال دائرا بين الخليفـة المسترشـد باللـه والسلطان محمـود ، واضطر الخليفة فى نهـاية الأمـر أن يقبل الصلح الذى دعاه اليه السلطان محمود ، واعتذر السلطان محمود عما بدر منه وعاد الى همذان(٢).

وفى سنـة ٥٢٥هـ/١١٣١م وجد الخليفـة المسترشد باللـه الفرصة سانحة له كى يحقق مايسعى اليه وذلـك بموت السلطـان محمـود فى هـذه السنـة ، كمـا حدث نزاع بين داود بن محمـود وعمـه مسعـود مـن أجل السلطنـة ومـن ثم عادت الخلافات بين أفراد البيـت السلجـوقى ، وأرسـل كـل منهمـا يطلـب

---

(١) ابن الجوزى : المنتظم ، ج٩ ، ص٢٥٤،٢٥٥ .

(٢) ابن الأثير : الكـامل فى التـاريخ ، ج٨ ، ص٣٢١،٣٢٢ - ابن الجوزى : المنتظـم ، ج٩ ، ص٢٥٥ - ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص١٩٥،١٩٦ - راجع الرسالة الفصل الثانى .

السلطنة لنفسه من الخليفة كما ذكرنا ذلك سابقا ، الا أن الخليفة أراد أن يتفاقم بينهما الخلاف ويزداد ، فلم يستجب لهما ، وكتب الى السلطان سنجر ألا يوافقهما على طلب السلطنة ، وازدادت الخلافات أكثر عندما ظهر منافس جديد طالبا السلطنة لنفسه وهو سلجوق شاه عم داود بن محمود . ونتج عن هذه النزاعات أن تقاتل كل من مسعود وسلجوق شاه ثم اصطلحا على أساس أن يصبح مسعود سلطانا على سلاجقة العراق وسلجوق شاه وليا لعهده ولكن هذا الصلح لم يكن نهاية النزاع بين السلاجقة ومن ثم تدخل السلطان سنجر ليضع حدا لهذا النزاع حيث كان معه طغرل واشتبكا فى حرب ضد مسعود ، وانتهت بهزيمة مسعود . ثم عين السلطان سنجر طغرل سلطانا على سلاجقة العراق وخطب له فى البلاد . وبعد أن استقر طغرل فى السلطنة لم يرق ذلك لابن أخيه داود بن محمود حيث خرج عليه عمه طغرل وهزمه(١).

وفى سنة ٥٢٦هـ/١١٣٢م اتجه عماد الدين زنكى ومعه دبيس بن صدقة الى بغداد لأن السلطان سنجر طلب منهما قصد العراق والاستيلاء عليها ، ولما علم الخليفة المسترشد بالله بذلك عبر الى الجانب الغربى والتقيا فى السابع عشر من رجب من نفس السنة فى حصن البرامكة(٢)، وهزم عماد الدين زنكى ميمنة الخليفة وانهزم دبيس بن صدقة حينما حمل عليه الخليفة ، وأراد عماد الدين زنكى أن يصمد الا أن الناس تفرقت من حوله ، فانهزم هو أيضا من الخليفة المسترشد بالله(٣).

وفى سنة ٥٢٧هـ/١١٣٣م أراد الخليفة الانتقام من عماد الدين زنكى حاكم الموصل والسبب فى ذلك أن الخليفة المسترشد بالله أرسل الامام أبا

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٨ ، ص٣٣٦، ٣٣٧ ـ البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص١٤٨، ١٤٩ ـ المقريزى : السلوك ، ج١ ، ص٣٥ .

(٢) حصن البرامكة : لم يذكر ابن الأثير عن هذا الحصن سوى انه كائن بالعراق . انظر الكامل فى التاريخ ، ج٨ ، ص٣٣٧ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج٨ ، ص٣٣٧ ـ القلقشندى : مآثر الانافة ، ج٢ ، ص٢٦ .

الفتوح الاسفرايني[١] الى عماد الدين زنكى برسالة شديدة اللهجة ، وقبض عماد الدين زنكى على الامام الاسفرائينى وأهانه اهانة بالغة وأعاده الى الخليفة ، وحينئذ سار المسترشد بالله من بغداد الى الموصل فى ثلاثين ألفا من الجند ، وحينما علم بذلك عماد الدين زنكى رحل عن الموصل مع بعض جنوده وترك الباقى بالموصل . وقد حاصر الخليفة العباسى المسترشد بالله مدينة الموصل على الرغم من العرض الذى عرضه عماد الدين زنكى على الخليفة من التحف والأموال ، الا أن الخليفة اضطر الى فك الحصار عن الموصل وعاد الى بغداد ومن ثم لم يظفر منها بشىء[٢].

وهناك عدة احتمالات ترجح اضطرار الخليفة العباسى المسترشد بالله الى فك الحصار عن الموصل والعودة الى بغداد وهى مايلى[٣]:

(١) أن عماد الدين زنكى حصن الموصل بالعسكر وشحنها بالمؤن والعتاد ، ومن ثم عجز الخليفة عن اقتحام أسوارها .

(٢) خرج عماد الدين زنكى من الموصل قبل حصار جيش الخليفة لها ، وقام بقطع المدد عن جيش الخليفة مما أجبر الخليفة المسترشد بالله على فك الحصار .

---

(١) هو : محمد بن الفضل ، ويعرف بابن المعتمد ، الواعظ المتحكم ، ولد سنة ٤٧٤هـ/١٠٨١م باسفرايين ، وتفقه بخراسان ، ورحل الى بغداد ، وقام بنشر المذهب الأشعرى وبالغ فى التعصب للمذهب ، فأخرج من بغداد ، ثم ذهب الى خراسان فأدركته الوفاة فى ذى الحجة سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م .
انظر ابن الأثير : المصدر السابق ، ج٨ ، ص٣٤٠ - الأصبهانى : خريدة القصر وجريدة العصر ، تحقيق محمد بهجة الأثرى ، مطبعة المجمع العلمى العراقى ، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م ، ج٢ ، ص٣٤٧ .

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ، ص٤٧-٤٩ - أبو الفداء : المختصر ، ج٣ ، ص٧ - ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص٣٥٤ .

(٣) محمد بن مسفر بن حسين الزهرانى : نفوذ السلاجقة السياسى فى الدولة العباسية ، ص١٣١ .

(٣) علم المسترشد بالله أن مسعود قد نقض عهده وسار بجيش كبير الى بغداد للاستيلاء عليها أثناء تواجده بالموصل فاضطر الى العودة .

وفى نفس هذه السنة توجه مسعود الى همذان لمحاربة أخيه طغرل وانتصر عليه ودخل بغداد حيث اعترف به الخليفة العباسى المسترشد بالله سلطانا على سلاجقة العراق وأمر له بالخطبة على المنابر(١)كما مر بنا سابقا .

وفى سنة ٥٢٨هـ/١١٣٤م أرسل عماد الدين زنكى الى الخليفة المسترشد بالله رسولا يطلب منه الصلح ، واشترط الخليفة أن يظل عماد الدين زنكى ببغداد بصفة دائمة ، وقصد الخليفة من هذا الشرط التحقق من نواياه واخلاصه له . ووافق عماد الدين زنكى على شرط الخليفة ، وهذا الشرط الذى حدده الخليفة يدل على حنكته وخبرته بأحوال السلاجقة وصراعاتهم الأسرية ، ومن ثم نتج عن هذا الصلح التفرغ للسلاجقة ، واستطاع أن يحول عداء عماد الدين زنكى الى ولاء .

وفى نفس السنة ضعفت سلطة مسعود بعدما انضم معظم جنوده الى أخيه طغرل ، وقد استغل المسترشد بالله هذا النزاع القائم بين مسعود وطغرل فدعا مسعود الى بغداد وظل يحرضه على قتال طغرل ويعده بمساعدته والسير معه لقتال طغرل غير أن مسعود لم يجب الخليفة الى طلبه لادراكه نية وقصد الخليفة .

وقد تجدد الخلاف مرة أخرى بين الخليفة ومسعود ، لأن مسعود رفض تسليم الأمراء الموالين لطغرل الذين فروا اليه ، فغضب المسترشد بالله من مسعود وأمره بالرحيل عن بغداد ، وخرج منها فى شهر ذى الحجة من نفس السنة واضطر الخليفة لمصالحة مسعود عندما علم بأن طغرل خرج على رأس جيشه قاصدا العراق ليقفا معا ضد خصمهما طغرل(٢).

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٨ ، ص٣٣٩، ٣٤٠ - ابن خلدون : العبر ، ج٥ ص٥٩ .

(٢) محمد بن مسفر بن حسين الزهرانى : نفوذ السلاجقة السياسى فى الدولة العباسية ، ص١٣٢، ١٣٣ .

وبوفاة طغرل بن محمد فى محرم سنة ٥٢٩هـ/١١٣٥م سار مسعود الى همذان واستولى عليها وتولى الحكم بها فى بداية هذه السنة . وقامت الحرب فى نفس السنة بين مسعود والخليفة المسترشد بالله ، ويرجع السبب فى ذلك الى أن الأمراء الذين لجأوا اليه خوفا من الخليفة المسترشد بالله حرضوه لقتال الخليفة لاخضاعه للنفوذ السلجوقى ومن ثم استجاب السلطان مسعود لهم حيث جهز جيشه لمهاجمة بغداد .

وهناك سبب آخر فى هذا القتال وهو أن السلطان مسعود حينما استقرت له الأمور فى همذان تركه جماعة من الأمراء وفروا الى الخليفة المسترشد بالله وحرضوه على قتال السلطان مسعود بحجة أن مسعودا لم يكن لديه استعداد للقتال مما شجع الخليفة لاعداد العدة للخروج لقتال مسعود وهو واثق من النصر(١). وقد ذكرت تفاصيل ذلك فيما سبق .

وسار مسعودومعه الخليفة معتقلا الى مراغة . وقد استولى جيش مسعود على أموال الخليفة وغنائم كثيرة وأنزل مسعود الخليفة فى خيمة منفردة وثار الناس وانتشرت الفتن فى بغداد بين أهلها وأتباع مسعود . ووصل رسول(٢) السلطان سنجر معه رسالة لمسعود يلومه ويحذره عاقبة ماوقع منه فى حق الخليفة ويأمره بالاحسان اليه وأن يعيده الى دار خلافته معززا مكرما ، ويرد له أمواله ، واستجاب مسعود لطلب عمه ، فأقام للخليفة سرادقا عظيما

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٨ ، ص٣٤٧،٣٤٨ - ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص٣٥٥ - القلقشندى : مآثر الانافة ، ج٢ ، ص٢٦ .
Claude-Coher,per-ottoman-Turkey, London, 1966, p.46 .

(٢) هو برنقش القارى خوان ، كان رسول السلطان سنجر الذى حمل لا مسعود رسالتين . الأولى سرية ورد فيها "لماذا أنت فى هيجان المعركة لم تقتل الخليفة؟" أما الرسالة الثانية مفتوحة ورد فيها "فى اللحظة التى تقرأ فيها يامسعود هذه السطور ، توجه حالا عند أمير المؤمنين وقبل الأرض أمامه واطلب العفو ، والا فستتوم القيامة . لذلك ارجع الخليفة بكل تبجيل الى عرشه وسلمه دبيس بن صدقة حتى يعاقبه الخليفة بنفسه ، لأنه فى كل هذه المسائل هو المخطىء فقط" .
انظر الحسينى : زبدة التواريخ ، ص٢٠٩ .

وقبل الأرض بين يديه ، وعزم بصدق على أن يعيده الى بغداد(١).

فوكل مسعود من يقوم بخدمة الخليفة على أكمل وجه ، وترددت الرسل بينه وبين الخليفة لتقرير قواعد الصلح بينهما وهو ماتم وفق الشروط التالية(٢):

(١) مال يؤديه الخليفة لمسعود .

(٢) ألا يعود الخليفة فى جمع العساكر .

(٣) ألا يخرج الخليفة من داره .

ولم يبق الا عودة الخليفة الى بغداد ، ووافق ذلك الوقت وصول رسول من السلطان سنجر ، فانشغل الناس بذلك وخرج مسعود الى استقباله وكذلك فارق الخليفة بعض من كان موكلا بخدمته ، فهجم على خيمة الخليفة أربعة وعشرون رجلا من الاسماعيلية(٣)ودخلوا عليه فقتلوه ومثلوا بجسده أبشع تمثيل ، وكان مقتله فى السابع عشر من ذى القعدة سنة ٥٢٩هـ/١١٣٥م ، عن عمر يناهز ثلاثة وأربعين سنة وثلاثة أشهر ، وكانت مدة خلافته سبع عشرة سنة(٤).

وهناك روايات مختلفة حول من كان وراء قتل الخليفة العباسى المسترشد بالله .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية فى التاريخ ، ج١٢ ، ص٢٠٨ ـ ابن الطقطقى : الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، ص٣٠٣ ـ ابن الكازرونى : مختصر الدول ص٢٢١،٢٢٢ .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٨ ، ص٣٤٨ ـ أبو الفداء : المختصر ، ج٢،١ ص٩ ـ ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص٣٥٤ ـ ابن خلدون : العبر ، ج٥ ص٦٠،٦١ .

(٣) عن الاسماعيلية انظر الفصل الخامس من الرسالة .

(٤) الأصبهانى : البستان الجامع لأهل الزمان ، ورقة ١٠٣ ـ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٨ ، ص٣٤٨،٣٤٩ ـ ابن الوردى : تتمة المختصر ، ج٢ ، ص٦٢ ـ ابن الكازرونى : مختصر التاريخ ، ص٢٢٢ ـ ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص٣٥٥ .

الرواية الأولى(١): ترجح أن مسعودا واطأ الاسماعيلية ودسهم لقتل الخليفة العباسى بسبب خوفه على نفسه من الخليفة ، لأنه استطاع أن يجمع الجيوش ، فتظاهر بأنه يحسن الى الخليفة بينما أضمر ودبر خفية حيلة لقتله على يد الباطنية .

الرواية الثانية(٢): وهى تبرئة مسعود من الاتهام الموجه اليه بقتل الخليفة ، وان الاتهام يجب أن يوجه الى دبيس بن صدقة ، لما كان بينهما من خلافات ونزاعات ومن ثم أمر بقتل دبيس فى الرابع عشر من شهر ذى الحجة سنة ٥٢٩هـ/١١٣٥م فى مدينة خوى بأذربيجان .

الرواية الثالثة(٣): ذكر بعض المؤرخين أن السلطان سنجر كان وراء مقتل الخليفة بأن دس أولئك الاسماعيلية ضمن فرقة من الجيش كانت ترافق حامل الرسالة للخليفة وذلك بسبب ماكان بينهما من عداء نتيجة لموقف الخليفة السلبى من تحقيق رغبة السلطان سنجر فى الاعتراف بطغرل سلطانا على سلاجقة العراق ، وأيضا لادراك السلطان سنجر أن موقف الخليفة من السلاجقة سيؤدى حتما الى زعزعة دولتهم والعمل على اسقاطها ، وأن الحل الأمثل هو التخلص نهائيا من الخليفة .

---

(١) ابن الطقطقى : الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص٣٠٣ ـ السيوطى : تاريخ الخلفاء ص٤٣٣ .

(٢) الحسينى : زبدة التواريخ ، ص٢٠٩ .

(٣) البندارى : مختصر دولة آل سلجوق ، ص١٦٥ .

(ج) علاقة السلطان سنجر بالخليفة الراشد بالله

(٥٢٩-٥٣٢هـ/١١٣٥-١١٣٨م)

obeikandl.com

بعد مقتل الخليفة المسترشد بالله على يد الباطنية ، بويع ابنه الراشد بالله بالخلافة ، وكان أبوه قد عهد له بولاية العهد فى حياته ، ولما قتل جددت له البيعة يوم الاثنين الموافق السابع والعشرين من ذى القعدة من سنة ٥٢٩هـ/١١٣٥م ، وقد قام ببيعة السلطان مسعود بن محمد(١).

غير أن السلطان مسعود لم يكن راغبا فى خلافة الراشد بالله ، لكونه سيسلك نفس سياسة أبيه العدائية للسلاجقة والسعى لتحرير الخلافة من نفوذهم ، وقد وجد السلطان مسعود سببا للاطاحة بالخليفة الراشد بالله ، فأرسل برنقش الزكوى سنة ٥٣٠هـ/١١٣٦م يطالبه بدفع المبلغ(٢) الذى كان المسترشد بالله قد تعهد بدفعه لهم ، ورفض الراشد بالله دفع المبلغ الذى طالبه به السلطان مسعود بحجة أن الاتفاق كان يتضمن عودة والده الى بغداد سالما ، بينما ماحدث كان مخالفا لهذا الاتفاق ، حيث قتل المسترشد بالله ونهبت أمواله . واقتحم برنقش الزكوى دار الخلافة بعدما علم أن الراشد بالله لن يدفع الأموال ، كى يستولى على الأموال ، وغضب الخليفة وجمع العساكر وهاجم برنقش الزكوى ومن معه وطردهم خارج بغداد .

واستشار الخليفة كبار رجال دولته فى موقفه من السلطان مسعود ، فأشاروا عليه بمحاربته ، ومنع الخليفة ذكر اسم مسعود فى الخطبة ، وبدأ يجمع الجموع استعدادا لمحاربته ، ومن ثم قوى جانب الراشد بالله لانضمام كل من داود بن السلطان محمود على رأس جيش من آذربيجان ، وعماد

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٨ ، ص٣٤٩ - أبو الفداء : المختصر ، ج٣ ، ص١٠ - القلقشندى : مآثر الانافة ، ج٢ ، ص٣٢ .

(٢) ورد عند البعض أن المبلغ المطلوب دفعه ثلثمائة ألف دينار ، وعند آخرين سبعمائة ألف دينار كما طلب منه دفع مبلغ ثلثمائة ألف دينار من قبل الراشد خلال توليه الخلافة ، وقد استشار الخليفة رجال دولته وأشاروا اليه باجابة السلطان مسعود بالآتى "أما الأموال المضمونة فانما كانت لاعادة الخليفة الى داره سالما وذلك لم يكن وأنا مطالب بالثأر ... ومابيننا الا السيف" . انظر الحسينى : زبدة التواريخ ، ص٢١٠ . ورد المبلغ عند ابن الأثير ، وابن خلدون أربعمائة ألف دينار . انظر الكامل فى التاريخ ، ج٨ ، ص٣٥٢ - العبر ، ج٥ ، ص٦١ .

الدين زنكى على رأس جيش الموصل ، وكل من صاحب قزوين برنقش بزدان ، وصاحب أصبهان البقش الكبير ، وصاحب الحلة صدقة بن دبيس ، وخطب لداود بن محمود ليضمن وقوفه بجانب جيش الخلافة(١).

وعلم السلطان مسعود أن الخليفة يستعد لقتاله ، فسار الى بغداد وحاصرها قرابة خمسين يوما ولم يظفر بها ، فرجع الى همذان حيث وصلته امدادات عسكرية من واسط ، ثم عاد مسعود مرة أخرى الى بغداد . ونتج عن ذلك زعزعة فى صفوف جيش الخليفة ، فانسحب داود بجيشه الى آذربيجان ، وانسحب كذلك عماد الدين زنكى الى الموصل وصحب معه الخليفة الراشد بالله . ودخل مسعود بغداد واستولى على دار الخلافة ، وبدأ يخطط لخلع الخليفة من الخلافة ويولى المقتفى لأمر الله محمد بن المستظهر بالله ، فجمع القضاة والفقهاء وعرض عليهم اليمين الذى حلف به ، وبخط يده والتى يتعهد فيها بعدم قتاله وان خالف ذلك فقد خلع نفسه ، فأفتوا بخلعه(٢). ولقد تحدثت عن ذلك مفصلا فى الفصل الثانى .

ولما علم الخليفة بخلعه كاتب السلطان سنجر شاكيا السلطان مسعود وطالبا العون والمساعدة ، وعلم الخليفة الراشد بالله أنه لن يستجاب الى طلبه(٣).

وقيل ان عماد الدين زنكى تخلى عن الخليفة الراشد بالله بسبب وصول رسالة من السلطان سنجر يأمره فيها باخراج الخليفة من الموصل

---

(١) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج٥ ، ص٦١ ـ ابن كثير : البداية والنهاية فى التاريخ ، ج١٢ ، ص٢١٠ ـ العينى : عقد الجمان ، ج١٢ ، ورقة ٢٨ .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٨ ، ص٣٥٤ ـ الذهبى : كتاب دول الاسلام ، ج٢ ، ص٥١،٥٢ ـ ابن العبرى : تاريخ مختصر لدول ، ص٣٥٥،٣٥٦ ـ ابن الوردى : تتمة المختصر ، ج٢ ، ص٦٣،٦٤ .

(٣) ورد عند الحسينى نص جواب السلطان سنجر : "أن قد آبت عساكر المسلمين الى جانب جيحون ، وأيضا فان حزب الله هم الغالبون فى العشرين من شهر رمضان سنة احدى وثلاثين وخمس مائة" . انظر : زبدة التواريخ ، ص٢١١،٢١٢ .

وعدم مساعدته . وهكذا خرج الراشد بالله من الموصل متجها نحو آذربيجان ومنها الى همذان(١).

وفى الطريق انضم الى الخليفة داود بن محمود وولاة خوارزم وفارس وخوستان ووعدوه أن يساعدوه ويعاونوه على أن يستعيد الخلافة ، وعلم بذلك السلطان مسعود فسار بجيشه لحربهم فهزمهم ومن ثم تفرقوا من حول الخليفة وسار الراشد بالله الى أصفهان حيث قتل بها على يد نفر من الخراسانية(٢)فى شهر رمضان سنة ٥٣٢هـ/١١٣٨م(٣).

وقد اختلف المؤرخون عن كيفية مقتله نوردها فيما يلى :

(أ) أنه مات مسموما(٤).

(ب) أنه قتل على يد بعض خدامه(٥).

(ج) أنه قتل على يد جماعة من الباطنية هاجموه فى طريقه الى أصفهان(٦).

(د) أنه قتل بيد بعض جنوده(٧).

ومن هنا يتبين أن المؤرخين أجمعوا على أنه مات مقتولا ، الا أنهم اختلفوا على طريقة قتله وعلى يد من قتل .

---

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص٥٣،٥٤ .

(٢) المقصود بالخراسانية الباطنية. انظر ابن الأثير : المصدر السابق ، ص٥٥ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ، ص٥٤،٥٥ ـ الأصبهانى : البستان الجامع لأهل الزمان ورقة ١٠٣ ـ ابن خلدون : العبر ، ج٥ ، ص٦٣ ـ ابن الوردى : تتمة المختصر ، ج٢ ، ص٦٧ .

(٤) ابن الجوزى : المنتظم ، ج١٠ ، ص٧٦ ـ الذهبى : دول الاسلام ، ج٢ ، ص٥٣ .

(٥) ابن الجوزى : نفس المصدر والصفحة ـ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٨ ، ص٣٦٢ ـ ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص٣٥٧ .

(٦) الراوندى : راحة الصدور ، ص٣٣١ .

(٧) ابن الوردى : تتمة المختصر ، ج٢ ، ص٦٧ ـ الحسينى : الدولة السلجوقية ، ص١٠٩ .

(د) علاقة السلطان سنجر بالخليفة المقتفى لأمر الله (٥٣٢-٥٥٢هـ/١١٣٨-١١٥٥م)

obeikandl.com

آلت الخلافة للخليفة العباسى المقتفى لأمر الله بعد خلع الراشد بالله فى الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٥٣٢هـ/١١٣٨م وخطب له يوم الجمعة عشرين ذى الحجة من نفس السنة(١).

ويعتبر الخليفة المقتفى لأمر الله آخر خليفة عباسى يتزوج من السلاجقة حيث تزوج من فاطمة(٢) بنت السلطان محمد بن ملكشاه أخت السلطان مسعود ، غير أن هذا الزواج لم يحل دون الخلافات والنزاعات بينه وبين السلاجقة(٣).

وكما مر بنا سابقا أن السلطان مسعود استولى على جميع مافى دار الخلافة ببغداد ، ولقد بايع الخليفة بشرط ألا يكون لديه خيل أو عدة سفر كذلك ألا يضم اليه أى مملوك تركى ومن ثم كان معظم غلمانه من الروم اضافة الى أن مسعودا ضيق الخناق على الخليفة ماليا حيث جعل دخل الخليفة قاصرا على مايمتلكه من عقار .

وقد ساءت العلاقات بين الخليفة والسلطان مسعود وذلك بعد أن أرسل مسعود الى الخليفة يطلب منه مزيدا من المال ، ولكن المقتفى لأمر الله أجابه أنه لايمتلك درهما واحدا ، وأنه قد أخذ جميع مافى دار الخلافة بما فى ذلك الأثاث ، فمن أين نأتى له بالمال؟ وأن الخليفة عاهد الله تعالى ألايأخذ درهما من الناس ظلما أو بغير وجه حق(٤).

---

(١) ابن العمرانى : الأنباء فى تاريخ الخلفاء ، ص٢٢٥ ـ ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص٣٥٧ ـ السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص٤٣٧ .

(٢) هى : فاطمة خاتون بنت محمد ملكشاه ، كان زواجها فى رجب سنة ٥٣١هـ/١١٣٧م والصداق مائة ألف دينار وكان الوكيل فى قبول النكاح وزير الخليفة (على بن طراد الزينبى والوكيل عن السلطان مسعود وزيره الزركزينى) .
انظر ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٨ ، ص٣٥٦ .

(٣) البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص١٧٩ ـ الذهبى : دول الاسلام ، ج٢ ، ص٥٣ ـ حسن ابراهيم حسن وآخر : النظم الاسلامية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ص٧٠ ـ على ابراهيم حسن : التاريخ الاسلامى العام ، ص٤٦٥ .

(٤) محمد ماهر حمادة : الوثائق السياسية والادارية ، ص٤٤١،٧٤ ـ محمد بن مسفر بن حسين الزهرانى : نفوذ السلاجقة السياسى فى الدولة العباسية ، ص١٤٦ .

ورد النص كالتالى : "فقال المقتفى : مارأينا أعجب من أمرك! أنت تعلم أن المسترشد سار اليك بأمواله فجرى ماجرى ، وأن الراشد ولى ففعل مافعل ، ورحل وأخذ ماتبقى ولم يبق الا الأثاث ، فأخذته كله ، وتصرفت فى دار الضرب ، وأخذت التركات والجوالى ، فمن أى وجه نقيم لك هذا المال؟ ومابقى الا أن نخرج من الدار ونسلمها ، فانى عاهدت الله أن لاآخذ من المسلمين حبة ظلما" . فترك السلطان الأخذ من الخليفة ،واتجه الى جباية الأملاك من الناس ، وخاصة التجار(١).

وفى سنة ٥٣٥هـ/١١٤١م وصل رسول من السلطان سنجر الى الخليفة المقتفى لأمر الله يعيد اليه بردة النبى صلى الله عليه وسلم والقضيب(٢)، وكان سنجر قد أخذهما من المسترشد بالله(٣).

وفى سنة ٥٣٦هـ/١١٤٢م انهزم السلطان سنجر من القره خطائيين فى موقعة قطوان(٤)ونتج عن ذلك سوء الأحوال الاقتصادية وازداد تبرم وغضب الناس وأصبحت الأمور لاتسير فى مصلحة السلاجقة بصفة عامة ، وقد دفع ذلك المقتفى لأمر الله أن يستعد بجمع الجيش والسلاح ويعزز قوته العسكرية(٥).

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص٤٣٧-٤٣٨ .

(٢) فى وصف ركب الخليفة المقتدر العباسى فى سنة ٣٢٠هـ/٩٣٢م لقتال مؤنس (خرج من دار فى أكمل لباس وموكب ، فكان عليه خفتان ديباج فضى وعمامة سوداء ، وعلى كتفه وصدره وظهره البردة النبوية ، وهو متقلد بذى الفقار سيف الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحمائله أدم أحمر ، وفى يده اليمنى الخاتم والقضيب) . انظر آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، عصر النهضة فى الاسلام ، ج١ ، ص٢٥٥ .
والقضيب : هو من الخيزران كان بيد الخليفة .
انظر حسن ابراهيم حسن وآخر : النظم الاسلامية ، ص٦٩ .

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٨ ، ص٣٦٩ - ابن الوردى : تتمة المختصر ، ج٢ ، ص٦٩ - أبو الفداء : المختصر ، ج٣ ، ص١٥ .

(٤) عن الحرب بين سنجر والقره خطائية . انظر الفصل الرابع .

(٥) حسن أحمد محمود وآخر : العالم الاسلامى فى العصر العباسى ، ص٦٢١ .

وفى سنة ٥٤١هـ/١١٤٧م أقام السلطان مسعود ببغداد دارا للضرب(١) فقبض الخليفة على الضراب الذى تسبب فى اقامة هذه الدار ، ومن ثم قبض السلطان مسعود على حاجب الخليفة مما أدى الى غضب الخليفة وأغلق المساجد ثلاثة أيام، فأطلق مسعود سراح الحاجب وأطلق الخليفة الضراب وسكن الأمر بين الخليفة والسلطان(٢).

وفى نفس السنة بعث السلطان سنجر رسولا واعظا الى الخليفة قام بالوعظ ببغداد فكان وعظه مقبولا عند العامة حيث يتركون أعمالهم ويحضرون مجلسه ، كما حضر مجلسه أيضا السلطان مسعود وأمرائه(٣).

ذكر السيوطى النص التالى : "حضر السلطان مسعود وتعرض الواعظ بذكر مكس البيع وماجرى على الناس ، ثم قال : ياسلطان العالم ، أنت تهب فى ليلة لمطرب بقدر هذا الذى يؤخذ من المسلمين ، فاحسبنى ذلك المطرب ، وهبه لى ، واجعله شكرا لله بما أنعم عليك فأجاب ، ونودى فى البلد باسقاطه ، وطيف بالألواح التى نقش عليها ترك المكوس ، وبين يديه الدباب ، والبوقات ، وسمرت ولم تزل الى أن أمر الناصر لدين الله بقلع الألواح ، وقال : مالنا حاجة بآثار الأعاجم"(٤).

وفى سنة ٥٤٣هـ/١١٤٩م استغل الخليفة النزاع بين السلطان مسعود وجماعة من الأمراء فعمل على تكوين جيش نظامى للخلافة ونجح فى ذلك ثم أمرهم باصلاح سور بغداد وترميمه وبحفر الخنادق وتحصينها استعدادا للطوارىء(٥)، وكانت نظرته ثاقبة حيث حصل ماتوقعه ، ففى نفس السنة

---

(١) أى دار ضرب النقود . وكان ضرب النقود من شعائر الخلافة ، وكذلك اقامة الخطبة .

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص٤٣٨ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج٩ ، ص١٩ .

(٤) انظر المصدر السابق ، ص٤٣٨-٤٣٩ .

(٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص٢١ ـ محمد بن مسفر بن حسين الزهرانى نفوذ السلاجقة السياسى فى الدولة العباسية ، ص١٤٧،١٤٨ .

سار جماعة من الأمراء الى بغداد ومعهم محمد شاه بن محمود وملكشاه بن محمود محاصرين مدينة بغداد وقد صمموا على خلع السلطان مسعود والانتصار عليه ، فعاثوا فى البلاد فسادا وتخريبا وتصدى لهم أهل بغداد للدفاع عنها ولكن قتل الكثير من أهل بغداد وظلوا محاصرين المدينة وطلبوا من الخليفة دفع ثلاثين ألف دينار لهم .

وقد أشار يحيى بن محمد بن هبيرة (١)، وهو صاحب ديوان الخليفة آنذاك ، على الخليفة ألا ينصاع لمطالبهم وأن يعمل على تكوين جيش قوى للدفاع وصد خطر الأعداء ، واستجاب الخليفة لرأيه . وقد استحسن المقتفى لأمر الله رأى ابن هبيرة مما جعله يخلع عليه الوزارة ويستوزره فى نفس السنة (٢)، وخرج الخليفة بجيشه لمحاربة المحاصرين لبغداد ونجح فى أن ينتصر عليهم .

---

(١) يحيى بن محمد بن هبيرة : هو أبو المظفر الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة بن محمد بن هبيرة بن سعد بن الحسين ... بن عدنان الشيبانى الملقب عون الدين ، وهو من قرية بالعراق تعرف بقرية بنى أوقر ، ولد بها عام ٤٩٩هـ/١١٠٥م ، دخل بغداد فى صباه وتلقى العلم بها وجالس العلماء والفقهاء ، وتعلم صناعة الانشاء ، وقرأ التاريخ والأدب وعلوم الدين ، واتصل بالخليفة المقتفى لأمر الله فولاه بعض الأعمال سنة ٥٤٢هـ/١١٤٥م ، فظهرت كفاءته فأعجب به فاستوزره سنة ٥٤٤هـ/١١٤٧م ، وكان يقول ماوزر لبنى العباس مثله ، وهو الذى لقبه بعون الدين ، وكان ابن هبيرة يقوم بشئون الوزارة حكما وسياسة وادارة أفضل قيام ، ولما توفى المقتفى بويع المستنجد فأقره بالوزارة ، فاستمر فى الوزارة الى أن توفى ببغداد سنة ٥٦٠هـ/١١٦٥م . وله مصنفات كثيرة منها "الايضاح والتبيين فى اختلاف الأئمة المجتهدين" ، و"الاشراف على مذاهب الاشراف" ، و"المقتصد" ، و"العبادات" ...الخ .

انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٦ ، ص٢٣٠ ـ خير الدين الزركلى : الأعلام ، ج٨ ، ص١٧٥ ـ الحسينى : زبدة التواريخ ، ص٢٢٦ ورد فيها أن ولادته عام ٤٩٧هـ/١١٠٣م) .

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج٩ ، ص٢٥ ـ البندارى : تاريخ مختصر دولة آل سلجوق ، ص٢٠٤ ـ الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ، ص١٢٠ .

وفى شهر رجب سنة ٥٤٧هـ/١١٥٣م توفى السلطان مسعود ، وبموته ضعفت دولة سلاجقة العراق وظهرت فيها الفتن والمنازعات ، ومن ثم لم تقم للسلاجقة قائمة بعد وفاة السلطان مسعود ، بينما المقتفى لأمر الله أصبح له الكلمة الأولى فى العراق وقوى نفوذه وسلطانه وبدأ فى استرداد امتيازاته ومخصصاته ، كما أخذ من جماعة أصحاب السلطان مسعود أموالهم وممتلكاتهم ، وكان بجانبه وزيره يحيى بن محمد بن هبيرة . وقد اتخذ الخليفة بصفة عامة سياسة تضعف من شأن أمراء السلاجقة وجمع العساكر والأجناد ليقوى جيشه ويصبح فى حالة استعداد دائم للقضاء على خصومه(١). ثم خرج نداء الخليفة فى بغداد : "أنه من تخلف من الجند ولم يحضر الديوان ، ويجرى على عادته فى اقطاعه أبيح دمه وماله"(٢).

ويمكن القول أن وفاة السلطان مسعود تعتبر الحد الفاصل للسيطرة الفعلية للسلاجقة بالعراق(٣).

ولما علم مسعود بلال شحنة بغداد(٤) بوفاة السلطان مسعود هرب الى تكريت فى رجب من العام نفسه فقام الخليفة المقتفى لأمر الله بمصادرة داره وديار أصحاب السلطان بجميع مافيها ، وعزل جميع من عينهم السلطان وعين غلمانا من الروم والأرمن وجعلهم أمراء .

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص٣١، ٣٢ - المقريزى : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١ ، ص٣٨ - ابن دقماق : الجوهر الثمين فى سير الخلفاء والملوك والسلاطين ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ، جامعة أم القرى ، مركز البحث العلمى ، مكة المكرمة ، ص١٦٨ - حسن أحمد محمود ، وآخر : العالم الاسلامى فى العصر العباسى ، ص٦٢١، ٦٢٢ .

(٢) محمد مسفر الزهرانى : نفوذ السلاجقة السياسى فى الدولة العباسية ، ص١٤٨، ١٤٩ .

(٣) عصام الدين عبد الرؤوف : الحياة السياسية فى بلاد الجبل ويزد فى عهد الكاكويه الديالمة ، مجلة المؤرخ العربى ، العدد الثامن عشر ، بغداد ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ص١٠٣

(٤) مسعود بلال : تولى شحنة بغداد أثناء حكم السلطان مسعود فى بغداد ، وكان من بين الخدم الخصيان الحبشيين الكبار من أمراء دولته . ورد عند الحسينى بلفظ مسعود البلالى . انظر : زبدة التواريخ ، ص٢٤١ .

وسار مسعود بلال الى الحلة وبسط نفوذه عليها بعد أن قبض على سلاركرد(١) الذى سير على رأس جيش الى الحلة من قبل السلطان ملكشاه بن محمود ، فلما علم الخليفة بذلك جهز جيشه وعلى رأسه ابن هبيرة ، حيث اشتبك الجيشان فى معركة نتج فيها انهزام مسعود بلال من جيش الخليفة ومن ثم عاد الى تكريت(٢). ويذكر البعض أن جيش الخليفة بلغ تعداده ستة آلاف جندى صرف عليهم مبلغ وقدره ثلاثمائة ألف دينار مما جعل الجند يبذلوا قصارى جهدهم فى القتال ، اضافة الى انضمام أعداد أخرى الى جيش الخليفة حتى يقال أن عدده وصل الى أكثر من اثنى عشر ألف جندى(٣).

ثم توجه مسعود بلال الى همذان حيث محمد شاه وأخذ يهون عليه أمر بغداد وأنه قادر على ضمها اليه فى أقصر مدة ، ولم يهتم محمد شاه بكلامه وكان يراسل الخليفة مباشرة ، ولم يوافق الخليفة على الاعتراف به سلطانا ، وعاد مسعود بلال الى تكريت عندما رأى أن وعود محمد شاه لم تحقق ، وكان بها أرسلان شاه بن السلطان طغرل واجتمع عليهم التركمان ووصل الخبر الى المقتفى لأمر الله فجمع جنودا كثيرة وخرج للقائهم فى سنة ٥٤٩هـ/١١٥٥م وانتصر عليهم وعاد الى بغداد مظفرا وخلص العراق من مسعود بلال(٤).

---

(١) وردت عند ابن الأثير (سلاكرد) ، واسمه سلارجور بن الزهير بن الكردى ، وهو من كبار الأمراء السلطانية ، دعاه مسعود بلال الى مأدبة بالحلة فى الجانب الغربى فاستجاب لذلك ، فغدر مسعود به حيث أوثقه وشد برجليه ثقالة ورماه فى الفرات فغرق بالحال ، وأصحابه على شاطىء الفرات لايستطيعون انقاذه .
انظر المصدر السابق ، ج٩ ، ص٣٢ ـ الحسينى : زبدة التواريخ ، ص٢٤٢ .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص٣٢ ـ ابن خلدون : العبر ، ج٤ ، ص٢٩٢ ـ الحسينى : زبدة التواريخ ،ص٢٤١-٢٤٣ .

(٣) محمد مسفر الزهرانى : نفوذ السلاجقة السياسى فى الدولة العباسية ، ص١٤٩ .

(٤) البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص٢١٧-٢٢١ ـ الذهبى : كتاب دول الاسلام ج٢ ، ص٦٣-٦٥ ـ الحسينى : زبدة التواريخ ، ص٢٤٣،٢٤٥ .

وفى سنة ٥٥٠هـ/١١٥٦م خرج الخليفة المقتفى لأمر الله الى دقوقا(١) فحاصرها وقاتل أهلها وحينما علم أن عسكر الموصل تجهز للمسير اليها ومنعه عنها رحل عنها دون أن يظفر بها(٢).

وفى سنة ٥٥١هـ/١١٥٧م استغل الخليفة المقتفى لأمر الله العداء والمنافسة بين كل من ملكشاه ومحمد شاه وسليمان شاه ، فساند سليمان شاه الذى عهد اليه سنجر بولاية العهد ، واعترف به سلطانا وخطب له ، واشترط عليه الخليفة أن تكون العراق له ، ويكون لسليمان شاه مايفتحه بسيفه سوى العراق(٣).

وفى نفس السنة حاول الخليفة أن يستميل أحد أمراء البيت السلجوقى فسمح لسليمان شاه بن محمد(٤) بالقدوم الى بغداد وولاه سلطانا على سلاجقة العراق ، وأخذ عليه العهود والمواثيق على الاخلاص له والطاعة وعدم التعرض مطلقا للعراق لأنها تحت سيطرة وحكم الخليفة مباشرة .

كما عهد الى ملكشاه بن أخ سليمان شاه بولاية العهد ، وأمدهما الخليفة بالمال والسلاح وبفرقة من جيش الخلافة يقدر بثلاثة آلاف جندى وسيرهما الى همذان لمحاربة السلطان محمد شاه ، ولما علم بذلك محمد شاه سار اليهما ، وانتصر عليهما وشتت شملهما .

---

(١) دقوقا : البعض يطلق عليها "دقوق" وهى مدينة تقع فى اقليم الجزيرة بالعراق ويمر بها نهر دقوق ، وصفها البعض بأن مناخها أصح من مناخ بغداد .
انظر كى لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص١٢٠، ٢١٢ .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص٤٧ - ابن كثير : البداية والنهاية فى التاريخ ، ج١٢ ، ص٢٣٢ - أبو الفداء : المختصر ، ج٣ ، ص٢٩ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص٣٢٢ - الـ : زبدة التواريخ ، ص٢٤٠ .

(٤) سليمان شاه بن محمد : سجن فى شوال سنة ٥٥٥هـ/١١٦١م ، وقتل فى ربيع الثانى سنة ٥٥٦هـ/١١٦٢م ، وذكر البعض أن سلطانا اسمه ملكشاه الثالث بن محمود الثانى تولى السلطنة قبله من ٢٦ صفر ٥٥٥هـ الى ١١ ربيع الأول .
انظر زامباور : معجم الأنساب ، ص٣٣٤ .

وبعد الانتصار الذى حققه محمد شاه ، راسل الخليفة المقتفى لأمر الله يطلب منه أن يخطب له بالسلطنة ، فرفض الخليفة طلبه ، فقرر محمد شاه السير بجيشه الى العراق ، ولما علم الخليفة بذلك أخذ يعد العدة لقتال محمد شاه . ولما وصل الجيش السلجوقى بقيادة محمد شاه الى بغداد سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٨م فرض الحصار عليها ، غير أن ذلك لم يؤثر على الروح المعنوية لجيش الخليفة ، ووصلت الأخبار الى محمد شاه بأن أخاه ملكشاه دخل همذان واستولى عليها وأعلن نفسه سلطانا عليها ، فاضطر محمد شاه الى فك الحصار عن بغداد وعاد الى همذان ، وبذلك استرد الخليفة نفوذه ببغداد بعدما زال الخطر عنها ، وقد اعتبر المعاصرون ذلك نصرا للخلافة العباسية(١).

ويعلل البعض فى سبب فك الحصار عن بغداد الى يأس جنود الجيش السلجوقى من دخول بغداد ، فطلب كل واحد من أمراء الجيش أن يذهب الى أهله ، أضف الى ذلك أن الخليفة نفسه قام بارسال خطابات الى بعض هؤلاء الأمراء لتحريضهم ضد السلطان محمد شاه فاستجاب بعضهم لذلك ، فأجبر السلطان على الانسحاب(٢).

ويذكر البندارى(٣)ثمرة جهود الخليفة لاصلاح أمور الخلافة ، ويحدد المناطق التى شملها نفوذ الخليفة فيقول : (وملك الخليفة العراق من أقصى الكوفة الى حلوان(٤)، ونهر الملك(٥)،

---

(١) البندارى : تاريخ مختصر دولة آل سلجوق ، ص٢٢٨،٢٢٩،٢٣٤-٢٣٥ - ابن الأثير الكامل فى التاريخ ، ج٩ ، ص٤٨،٤٩،٥١،٥٢ .

(٢) محمد مسفر الزهرانى : نفوذ السلاجقة السياسى فى الدولة العباسية ، ص١٥٣ .

(٣) دولة آل سلجوق ، ص٢١٦،٢١٧ .

(٤) حلوان : مدينة تقع فى اقليم العراق أسفل الدرب المؤدى الى جبال ايران . انظر كى لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص٢٣ .

(٥) نهر الملك : هو النهر الذى يحمل من الفرات الى دجلة ، أوله عند قرية الفلوجة ونهايته دجلة أسفل من المدائن بثلاثة فراسخ ، قال البعض أنها كانت عامرة بالسكان وبها نخل وأشجار .
انظر كى لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص٩٤ .

ونهر عيسى (١)، ودجيل (٢)، والراذان (٣)، وطريق خراسان (٤) الى نواحى حلوان ، وأقطع الوزير عون الدين بن هبيرة جميع ماكان لوزير السلطان ، وأرباب مناصبه فى جميع هذه البلاد ، وأعانه على الاستعداد واضعاف الأعداد بتضعيف الأعداد) .

ومن هنا يتبين أن المقتفى لأمر الله سيطر على مالم يستطع أن يسيطر عليه خليفة عباسى من ذى قبل منذ أن استأثر السلاجقة بالسلطة فى الدولة العباسية .

---

(١) نهر عيسى : نهر كبير يحمل من الفرات الى دجلة ويصب فى الفرضه جنوبى المدينة المدورة ، وسمى بنهر عيسى باسم الأمير العباسى الذى شق هذا النهر وجعله صالحا لسير السفن من الفرات الى بغداد .
انظر كى لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص٤٨، ٩٢ .

(٢) دجيل : ولعله يقصد دجيل الأهواز التى تقع فى اقليم خوزستان ، ويرجع سبب تسميتها بدجيل "تصغير دجلة" لتمييزها عن دجيل ودجلة فى أعلى بغداد .
انظر كى لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص٢٦٧ .

(٣) الراذان : تقع فى اقليم فارس على بعد ١٨ فرسخا من آبان .
انظر كى لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص٣٢٢ .

(٤) طريق خراسان : أشهر الطرق العامة الواصل الى الشرق ، ويربط العاصمة بمدن ماوراء النهر التى فى تخوم الصين ، يبدأ من باب خراسان فى بغداد الشرقية وينتهى الى أزكند على تخوم صحراء الصين .
انظر كى لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص٢٣، ٢٤ .